قــراءة جــديــدة في مفهــوم الخطــاب عنــد فــوكــو

د. جلـــيـــل وادي

اوجد الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو لمفهوم الخطاب ابعادا جديدة لم تعرفها محاولات تحديده السابقة في الفلسفة الغربية ، بما جعل مساهمته اكثر تأثيرا في نظرية الخطاب من غيرها ، وقد تبين ذلك جليا في هيمنة المفهوم الفوكوي للخطاب على حقول معرفية عديدة.

يعرف فوكو الخطاب بأنه (النصوص والاقوال كما تعني بمجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها المنطقية او تنظيمها البياني، او نظام تعبير مقنن ومضبوط) كما يعني احيانا (الميدان العام لمجموع العبارات، ومجموعة متميزة من العبارات احيانا اخرى، وممارسة لها قواعدها، تدل دلالة وصف على عدد من معين من العبارات وتشير لها احيانا ثالثة)، انه (في واقعه المادي مكون من اشياء منطوقة ومكتوبة) او (مجموعة من الادلة من حيث هي عبارات وبوصفنا قادرين على ان نعين انماط وجودها الخاصة)، فالخطاب لايتحدد الا بوصفه منظومة من القواعد التي تميز مجموعة من المنطوقات التي تنتظم داخل الممارسة الخطابية.

ويلاحظ في هذه التعريفات تجاوزها للمفهوم اللساني للخطاب بوصفه مجموعة علامات دالة تحيل على مضامين وتصورات، ساعية الى دراسته كممارسة فكرية استدلالية داخل حدود وجوده، تتكون من خلاله الموضوعات بشكل منظم، ومع ذلك لابد ان يرتبط الخطاب بعلامة، اذ لاوجود لخطاب بلا علامات، ولكن هل تقتصر مهمة الخطاب على استخدام العلامات للدلالة على الاشياء؟ بالتأكيد ان مهمة الخطاب تتجاوز ذلك، وبالتالي لايمكن ردها الى اللغة او الكلام.

ان هذا المنظور للخطاب ـ الذي لايقتصر على كونه مجموعة اقوال فحسب، بل مجموعة احداث ذات صلة ببعضها البعض الاخر ايضا، اوممارسات فكرية او افعال ـ يهدف الى تحديد الطابع الخاص للخطاب بوصفه واقعة نوعية متميزة لايمكن ان تطابق غيرها مهما كانت صورة التشابه قريبة بينهما، كما انتج هذا المنظور مصطلحات خاصة به كالتشكيلات الخطابية (العبارات) والتشكيلات غير الخطابية (المضامين)، وبهذا الصدد يرى فوكو وجود اختلاف في الطبيعة بين ما يرى وما يعبر عنه، مؤكدا نوعية الرؤية واستقلالية المرئي، على الرغم من صلتهما الوثيقة واندماجهما اثناء تركيب بناء ما، الا ان الاهمية الكبيرة التي منحها للعبارات جعلت تغيرات الرؤية لاتعدو ان تكون سوى تشكيلات غير خطابية، تشغل الفضاء المكمل لحقل العبارات، وبذلك خلص الى وجود علاقات خطابية بينهما من دون ان تكون طبيعة هذه العلاقة كعلاقة علة بمعلول او رمز بمرموز، لان موضوع العبارة لايماثل الموضوع المرئي.

ان العبارات التي اعتمدها فوكو كقاعدة اولية ناشطة في الممارسات الفكرية الاستدلالية لا تختلف عن الوحدات اللسانية كالرمز والكلمة والجملة فحسب، بل انها صيغ مادية ذات جوهر ودعامة، ومحددة زمانا ومكانا، وان القانون الذي يتحكم بتوزيعها وظهورها وتحولاتها الخاصة هو الذي يمنحها وحدتها وهويتها، فضلا عن القواعد التكوينية الخاصة التي يمثل مفهوم العلاقة الشيء الاساسي فيها،انها قريبة الشبه بالموسيقى منها الى المنظومة الدالة .او طالما هي كذلك فانها عبارة عن تشكيلات لا تظهر الا كمجموعة . وان التغيرات التي تصيب ذوات الجمل او مدلولات الالفاظ تنعكس داخل الخطاب متوزعة في اللغة التي تكون وضعيتها هنا وسطا تتوزع فيه العبارات . عليه يكون الخطاب جزءا من اداء لفظي او مجموعة من العلامات الناتجة عن لغة طبيعية او اصطناعية . هذه العلامات يصعب تمييزها لكونها غير منظورة او مخفية في الوقت ذاته، مما يجعل الخطاب يتعارض مع تحليل اللغة . لانه يلغي ذاته عندما يكون في مستوى الدال.

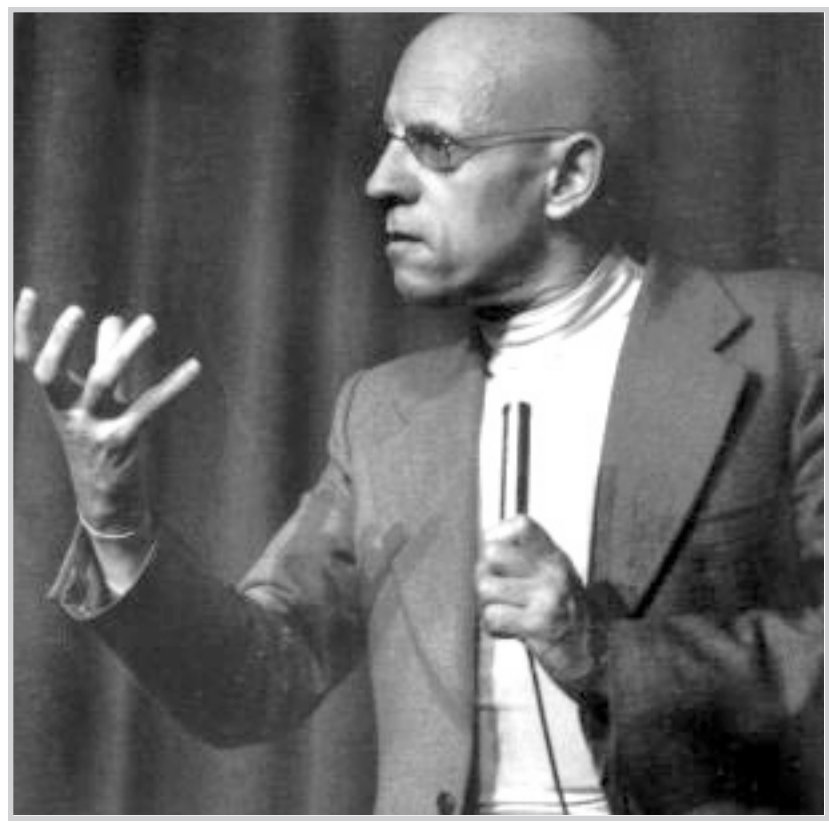
ميشيل فوكو

ذلك ان فوكو ينظر الى الخطاب على انه ميدان تختلف فيه ثنائية الكلمة/الشيء، وان العلاقات بين الخطاب والواقع الخارجي ليست علاقة تمثيل وانعكاس او تعبير، ولايضاح هذا الجانب يقارن فوكو بين تحليلي الفكر والخطاب، ففي الوقت الذي يسعى فيه تحليل الفكر الى كشف المعنى الحقيقي الكامن وراء المعنى المجازي، أي البحث عما وراء الخطاب (ماذا كان يقال وراء ماقيل فعلا)، نجد ان تحليل الخطاب يهمل الكلمات، ويهتم بالعبارات كونها مجموعة متناسقة ومترابطة وذات مضمون محدد، عادها اشياء قائمة بذاتها لاتحيل على شيء اخر، انما تتصف بذاتها لابغيرها، فالعبارة هنا تعالج وكأنها شيء وتحل محل شيء، أي ان اهتمام التحليل منصب على ترابطات العبارة وما يتصل بها من عبارات اخرى،وصولا الى تحديد نظام الخطاب، فهو غير معني بالبحث عن المخفي، او استكشاف ما يتصل بما قبل الخطاب وما بعده من خطابات وغير ذلك من امور، فلامرجع للخطاب (الا ذاته، ان اللغة تتمرأ في مراتها، انها الذات والاخر معا... كل ذلك يقود الى نوع من الموقف الوصفي لما هو مرئي ومقال دون ربطه بنظام اجتماعي محدد)، بل وصف تلك الخطابات ودراستها بكل وضعيتها وضمن شروط صياغتها المكانية، والكشف عن انماط التفرد الخاصة في تركيبها.

يتضح من ذلك ان فوكو لايبغي دراسة الافكار والتمثلات والصور والموضوعات المعلنة والخفية عبر الخطابات، بل عد الخطاب (مجال غفل تجد فيه الذات الفردية المتكلمة مكانها ووظيفتها)، وهذه الامكنة التي تحتلها الذات داخل عبارات الخطاب لاتتحدد بكيفية نهائية، بل يصيبها التغيير المستمر نتيجة اشغالها من قبل افراد اخرين، عليه تكون العبارة في كل حالة موضوعا عينيا لتراكم تستمر بحسبه، وتحافظ على بقائها وتنتقل وتتكرر، لذلك فأن مهمة اركيولوجي المعرفة لاتكمن في اقامة نظام من العلاقات السببية بين الكلمات والاشياء، ولاتشكل مادية الواقع او الظروف المحيطة بنشوء الخطاب عاى اختلافها جزءا من اهتمامه، او مواجهة بين واقع ولغة، ان المهمة تتمثل في تحديد ووصف قواعد الممارسة الخطابية عبر انتظاميتها وتكرارها، وهذا يقتضي ان لاتعالج الخطابات كوثائق وانما كأنصاب اثرية، وعلى ضوء ذلك فأن البحث عن ظاهرة ما لابد ان يتجه الاهتمام الى الخطابات التي انعكست فيها روح تلك الظاهرة، وليس الى الظاهرة ذاتها بسبب ان الخطاب مثل لغويا البنية الثقافية لهذه الظاهرة.

ويضع فوكو لتحديد الصلات القائمة بين العبارات التي تكون نسيج الخطاب، اربعة اسس افتراضية هي:

أ ـ ان العبارات باشكالها المختلفة تشكل مجموعا واحدا اذا كانت منتمية للموضوع نفسه بصرف النظر عن انتشارها زمانيا. ب ـ يجب التركيز على شكل العبارات ونمط تسلسلها وترابطها عند تحديد مجموعة من العلاقات بين عدد من العبارات. ج ـ البحث في اقامة مجموعة من العبارات عن طريق تحديد نظام المفاهيم الدائمة والمتناسقة المعتمدة فيها. د ـ لاجل تجميع العبارات في وحدات حقيقية ينبغي وصف تسلسلها وتتابعها، ووصف اشكال التوحيد التي تظهر بها كوحدة المضامين الفكرية وتماثلها وثباتها.

ولصعوبة ادراك العبارات مباشرة، فأن كشف دعامتها وتشكيلها يقتضي تمييز ثلاث دوائر تحيط بها، تكون بمثابة ثلاثة مستويات من الفضاء، تتمثل الاولى بالفضاء المحيط والمتاخم والمشكل من عبارات اخرى تنتمي الى المجموعة نفسها، بينما تتجسد الثانية بالفضاء المجاور او المترابط الذي يرتب هذه العبارة بالقياس الى تلك طبقا لامكنتها، اما الدائرة الثالثة فتتمثل بفضاء مكمل للعبارة. ولكي تعد مجموعة العبارات خطابا لابد ان تتسم بما يأتي: أ ـ ان تحيل جميعها على موضوعات تقع في مجال واحد. ب ـ ان تكون طريقة صياغة العبارات واحدة، بحيث تشترك معا في شبكة متشابهة للمفاهيم والتمييزات.ج ـ ان تتم نسبة الخطاب لمنتجه دون آخرين قد يشاركونه التصورات ذاتها عبر الاختيارات ووسائل البرهنة التي يستخدمها المنتج. د ـ العبارات لاتكتسب قيمتها كخطاب الا بتمتع منتجها بوضعية مؤسسية متعارف عليها.

وطبقا للشرط الاخير تكون مناطق الخطاب غير مفتوحة لاي كان بشكل مطلق، بل توجد مناطق مفتوحة للافراد لممارسة خطاباتهم دون مضايقات، واخرى مغلقة تقتضي اتسام مستخدمي الخطاب بجملة من الخصائص، فضلا عن شرط التمسك بقواعد استخدام الخطاب.

وهنا يبحث فوكو عن الفاعل الخطابي المتمتع بمؤهلات تميزه عن غيره للتلفظ بهذا النوع من اللغة، لان امتلاك الحقيقة والتصريح بها يتطلب شخصا معينا، بمعنى ضرورة تحلي الفاعل الخطابي بالكفاءة والقدرة على التلفظ وحسن الاطلاع ووضعية مؤسسية تؤهله للحديث في الفوكوية.

عزيز عبد الصاحب ومحمد الصكر

رحيل فاجع في صمت الخوف!

د. عـــواطف نعيـم
محترف بغداد المسرحي

لطالما تساءلت في اوقات كثيرة، ترى من سوف يرثينا حين تغلق الاعين في لحظة فراق ايدي لا بد من مجيئه مهما أمتدت فترة البقاء!! من يرثي ويذكر بمحبة ويؤبن فنانين ومثقفين بنوا ونحتوا في هرم الثقافة العراقية وشكلوا خارطتها الابداعية. من يكتب عنهم عن رحلة الضنى والصعاب والمخاطرة في مسيرة طويلة لم تكن فيها الطريق سالكة ولا الاماني دانية القطوف؟؟ اليوم يا اخوتي وحزام الظهر والمجن الذي يدرأ عنا، اليوم يا عزيز عبد الصاحب ويا محمد الصكر سوف اتوقف لالتقط انفاسي الهالعة. لأمنح هذا الذي يرتعش بين اضلاعي فرصة للهدوء. ثم اكتسب وانا اتطلع الى شريط من ذكريات حلوة تحمل الف انجازات رائعة سطرتموها باقتدار في تاريخ حركة فنية وثقافية عراقية وعربية اكتب عنكما عن إبداع وعطاء ونضال من اجل تفعيل حركة الفن والثقافة في بلاد الرافدين، اكتب عنك يا ابا السعود ايها الصوفي الجميل ايها الشاعر الانيق صاحب الكلمة الطيبة والضحكة الطفلة والروح المترفعة ابدأ عن كل ما يجرح او يخدش الآخر، إيها الكاتب الذي يأبى إلا ان يكون حاضراً مع صحبه لافرق في العمر ما دام القلب يرقص جذلاً بين الجوانح لتألق مبدع وتميز منجز، ها انت تبتسم مثل طفل مشاكس وترفع صوتك العذب بالغناء باحثاً عن (انعيمة) تلك التي دارت معك على الكون والتي لم تزل تملأ وجدانك بالعشق الذي لم يتوقف، ترى هل اتعبتك كل تلك المحبة يا أخي؟ هل اتعبت قلبك كل تلك الجراح والاحزان وانت تنظر الى وطن طالما منحته جمار روحك وهو يتلظى تحت سطوة الاحتلال وهراوة الارهاب وكارثية الموت اليومي العبثي؟؟ يا أبا السعود مازال "رغيفك" ساخنا يحتظن وجه الفرات ومازالت "جوهرتك" تضيء ظلمة التخلف وتبدد غشاوة التبلد، ومازال يا صاحبي "بشرك حافياً" يدور باحثاً عن اجوبة لاسئلة كونية التبست حتى على العقلاء!! وانت يا ابن الصكر امازلت تنعي طيبتك التي ابتلتك بكل ذاك التسامح والكبر!؟ مازالت ستوديوهات اذاعة بغداد تنتظر ايعازاتك كي تبدأ "دورة العصور" ومازال الشريط يدور ليسجل كل تلك الاصوات الحبيبة الدافئة ويحفظها في ذاكرة "تحذر من اليأس" وتدعو للتفاؤل والحياة، مازالت الابواب موصدة "فالخيانة" تقف على الاعتاب!! كل ما ابدعه عقلك النير ومخيلتك المتقدة يؤمي الى جمال فكرك وسعة معرفتك وثبات ما تنجر !! يارفات المحبة والألم يا خلان الطيبة الاسرة جمعتنا الافراح والاحزان معا. تحركت اصواتنا وتلونت نبراتنا بسحر كلماتكم، تراقصت اجسادنا جلالا ونشوة على خشبات المسارح العراقية، وهي ترنو الى ابصاركم المتطلعة باعجاب ودهشة لكل ماهو مبهر وانيق، كنا معا في الوقوف الواثق امام الميكرفون. فرسانا ماهرين نحسن اللعب والضحك والبوح، نحسن العزف على اوتار الصوت ونبض القلب، كنا معا في منتدى المسرح ومسرح الرشيد والوطني وكليه الفنون الجميل ومسرح بغداد والشعبي وقاعة الشعب، متأملين متأنين في لحظة الاختيار والاداء والتوقيت لكل ماهو انساني ومتتم يصب في حصارة وطن حرصنا على حفظه وصيانته ووضعه في دائرة الضوء ليضيق ويبني حركة ثقافية وفنية تحمل اسم وطن هو العراق، رفاقي واخوتي يا من ارتشفنا معا زمزم دجلة والفرات وتقاسمنا معاً برحي البصرة وتزينا بنرجس السليمانية وتذوقنا برتقال ديالى، معا في رحلة الصبر والحجر والخوف، وفجعنا معاً بانكسار وطن وفقدان احبة وتفتيت امان، اريتكم اخوتي، احبتي، صحبي، وارثي معكم نفسي فما من عزاء بعد فقدكم، اعتمت عوالم السحر من حولي وحاط بي اليباس وانا اشهد غيابكم الناجح، عيني على درب تلقف خطوكم اليه وعيني على وطن شاب من هول المحن، هاني هاني ود. عوني كرومي، عزيز عبد الصاحب، محمد الصكر، لكم محبتي فمازلت اتلفع بصبركم وصبري ليرحمنا الله جمعياً وليبسط سكينته على العراق المبتلى بفجيعة الغياب والعبث!!.

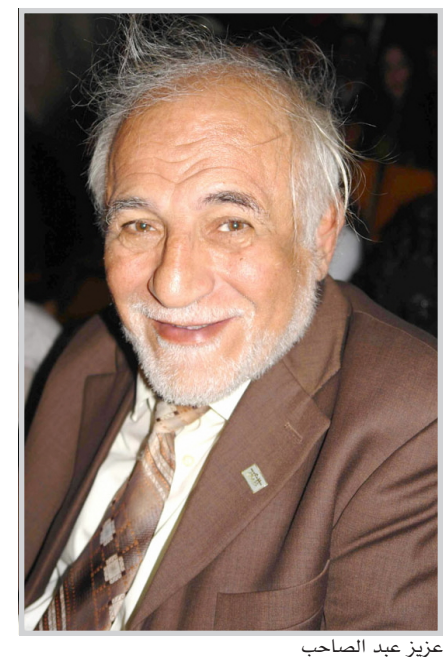
عزيز عبد الصاحب

لماذا نقرأ روايات (جول فيرن) العلمية حتى اليوم؟

ترجمة : عدوية الهلالي

بعد قراءة اعماله الكاملة وبالأعتماد على وثائق عديدة بينها رسائله الى ناشره هيتزل، عمدت الكاتبة سيمون فييرن الى تصحيح بعض الآراء حل كاتب الخيال العلمي الشهير جول فيرن، اذ ترى فييرن في كتابها " جول فيرن والرواية التعليمية "الصادر عن دار سيراك للنشر وكتابها الاخر " جول فيرن، الأسطورة والمعاصرة "الصادر عن دار ((puf للنشر ان روايات فيرن لم تكن قصصا خيالية بقدر ماكانت تأكيدا لأكتشافات علمية، فهو لم يكن كاتبا حسب، بل كان انسانا يتساءل باستمرار عما يطرأ على عالمه من تغيير..!

في عام ١٨٦٢، استلم الناشر ب.ج.هيتزل مخطوطة من كاتب مجهول تحمل عنوان " خمسة اسابيع في منطاد " وعندما نشرها، حققت مغامرات الكابتن نادار العبقري نجاحا ساحقا، فأدرك الناشر فورا بان هذا النوع من الروايات الذي يستكشف اراض مجهولة أو يتحرى عن الغاز ماتزال مجهولة للناس، يتلائم تماما مع مشروعه الفكري والتعليمي الذي كان ينوي تقديمه للأطفال والمراهقين من خلال مجلة جديدة تتألف من مجلدات ضخمة تمنح الأولاد مالم يحصلون عليه من المناهج الكنسية وتكشف لهم اسرار الأكتشافات العلمية الحديثة...

وهكذا، بدأ فيرن يعمل مع هيتزل، ولكي يقدم له افكارا جديدة، شرع بالأستفادة من شقيقه بول الضابط البحري للأطلاع على الجديد في عالم الملاحة وابن عمه عالم الرياضيات هنري غارسييه وقدم قصصا متعددة ضمتها تلك المجلات التي تروي رحلات الأستكشاف العديدة في عصره، فقد كان للميل واضحا في تلك الفترة لأستكشاف الأرض التي قال عنها بودلييز: "مازالت الأرض حتى الآن عصية على الأكتشاف "..

عمد الناشر هيتزل الى وضع الجغرافية في المقام الأول بين العلوم التي يسعى الى ايصالها لقرائه وقد أشار الى ذلك في مقدمة الناشر التي كتبها في مدخل كتاب " مغامرات الكابتن هاتيراس " لجول فيرن الصادر عام ١٨٦٤، اذ قال انه يقدم لقرائه " المعرفة الباعثة على المتعة، والمتعة المليئة بالمعرفة "، ورغم احتواء رواياته على معلومات فلكية وفيزيائية، الا ان الجغرافية تبقى لها الأولوية خاصة وانها تحقق حلم حياة جول فيرن بوصف الأرض كلها...

التزم فيرن بالكتابة للناشر هيتزل باعتباره الشخص الذي تبنى موهبته وساعده على تحقيق حلم حياته وبناءا على ذلك فقد وافق على تدخل هيتزل احيانا في تصحيح كتاباته لاسيما من ناحية اسلوبه الأدبي، ذلك ان هيتزل بدوره لم يتدخل في كتابات فيرن بصورة استبدادية بل نشأ بين الكاتبين تعاون كبير وكانت عبقرية فيرن بحاجة الى توجيه شخص خبير مثل هيتزل، كما ان خياله الفنطازي الجامح كان بحاجة الى فرامل...رغم ذلك، كان فيرن يصر احيانا على كتابة فكرة او رسم شخصية لاتخضع لمنطقية صاحبه وهذا ماحدث مع شخصية الكابتن نيمو في رواية " الجزيرة الغامضة " فقد اصر على ابقاء شراسة وفظاظة نيمو في الظل ليمنح صورة البطل قوة اكبر...

كان فيرن يربط بين الأسطورة والعلم ففي "مغامرت الكابتن هاتيراس"، وطأ البطل بقدمه ارض " القطب الشمالي " الذي كات يمثل للناس في عصره منطقة خرافية، كما حاول بطله" أكسل " بلوغ مركز الأرض، وهبط بطله نادار على القمر محققا حلما آخر للبشرية، كما اكتشف فيرن اطلالا ودلائل على انهيار الحضارة في الجانب الخفي للقمر، اما بطله نيمو فقد اختار العيش تحت البحار بعيدا عن عالم البشر العادي...

تدل هذه الشخصيات اذن على ان روايات فيرن لم تعتمد الأسطورة والخيال العلمي مادة لها بقدر مااستندت على الأكتشافاتالعلمية فقد قدم من خلال اعماله مشروعا تعليميا بصيغة روائية اخذت قوتها من الميل نحو الأسطورة لدرجة ان الناقد لوكليزيو قال عن اعماله انها تضاهي ملاحم خالدة مثل " الأليادة " و" الأوديسة "..

كان فيرن يجد سعادته في وصف اماكن ليست مكتشفة بعد، او تخيل اماكن خرافية مثل انقاض اتلانتيد، في ذلك المشهد الرائع في رواية " عشرين الف فرسخ تحت البحر "...

ويظل السؤال قائما:" ماسر نجاح رواياته المتواصل مادمنا لانحتاج للروايات لأكتشاف الأرض واكتساب المعرفة العلمية؟..من المؤكد اذن انه الأسلوب الفني المتميز والتقنية القصصية العالية هي التي منحت اعماله الأستمرارية فالنظرية العلمية تقول بان مركز الأرض بالغ السخونة بحيث يصعب على أي مغامر وصوله لكن فيرن يمنح ابطاله حق بلوغ الأماكن التي لا يقتنع أحد حتى الان بامكانية بلوغها وهو ماحدث في " عشرين ألف فرسخ تحت البحر " و "الجزيرة الغامضة " و"حمار ابوليه الذهبي " التي قابل فيها البطل الألهة ايزيس وقال عنها:"لأول مرة، ارى الشمس تشرق في الليل"

جول فيرون

عن مجلة الأكسبريس الفرنسية